

الجدل والحوار.. هما الحل



«الإقناع، هو السبيل التي سلكها القرآن الكريم في استقطابه الناس نحو الدِّين الحقّ الذي جاء به، وهو العقيدة الإسلامية. واستقطاب الناس نحو الدعوة الإسلامية، يأخذ مظهرين في الحقيقة:

الأوّل منهما: استقطاب الناس نحو الجديد من الآراء والمعتقدات التي تشمل عليها الدعوة الإسلامية.

الثاني: استقطاب الناس نحو الرّفص للموارث الثقافية التي تتعارض مع الدعوة الجديدة، والتي أعلن القرآن الكريم أنّها غير صالحة للحياة لما فيها من باطل، وما فيها من فساد، يعود على الناس بالضرر.

والاقتناع هو الهدف من كلّ العمليات التي كان يقوم بها القرآن الكريم في عقول الناس وقلوبهم. الاقتناع الذي يؤكّد الجديد في العقول وفي القلوب، ويهزم القديم في أنفس الناس. وإنّّه من هنا اعتمد القرآن الكريم في عملية الإقناع على أسلوب الجدل والحوار. وليس على القسر والإكراه تجيء بهما القوّة، أو الإلجاء تأتي به المعجزات. يقول الله تعالى من سورة البقرة: (لا إكراهَ في الدِّينِ - قَدْ تَبَيَّنَ الرِّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة/ 256)، ويقول في سورة يونس: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمَّ جَمِيعًا أَفَأَنْزَلْنَا نُوحًا لِّقَوْمِهِ النَّاسِ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُّؤْمِنِينَ) (يونس/ 99)، ويقول في سورة الأنعام: (وَلَوْ أَنْزَلْنَا نَزْلًا لِّنَا إِلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِن سَأَلْتَهُمْ أَكَيْفَ لَهُمْ يَجْهَلُونَ) (الأنعام/ 111)، ويقول من سورة الإسراء: (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ

ولم تقف آداب الجدل في القرآن الكريم عند طلب أن يكون الجدل بالتي هي أحسن فقط، وإنما تجاوز ذلك إلى أخلاقية أخرى من أخلاقيات الجدل القرآني، وهي أن يكون الحق هو المستهدف من الجدل، وليس الباطل. إنّه من هنا نهى القرآن الكريم النبيّ (ص) أن يجادل مَنْ ليسوا على الحقّ وهو نهى يقصد به جميع المسلمين. يقول ﷻ تعالى: (وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلِنُونَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ وَإِنَّ اللَّاهَةَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) (النساء/ 107)، ويقول: (هَذَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّاهَةَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) (النساء/ 109).

ولأنّ الجدل يجب أن يكون في سبيل الحقّ، بيّن ﷻ لنا عقوبة الذين يجادلون في سبيل الباطل. يقول ﷻ تعالى (وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) (غافر/ 5).

وكما وضع القرآن الكريم لنا آداب الجدل وأخلاقياته، حدّثنا عن طبيعة الإنسان وكيف أنّهُ يحبّ الجدل والمراء. يقول ﷻ تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) (الكهف/ 54)، ويقول: (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذْ أَقْوَمُكُمْ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) (الزخرف/ 57-58). أمّا طبيعة الجدل والحوار فيمكن أن نمثّل لهما بما يلي:

يقول ﷻ تعالى: (فَدِدْ سَمِعَ اللَّاهَةَ فَوَلَّ السَّيِّئِ تَجَادَلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِرْلَى اللَّاهَةِ وَاللَّاهَةُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمْ مَا إِنْ اللَّاهَةَ سَمِعَ بِصَيْرُ) (المجادلة/ 1). فنحن هنا أمام حقيقة وصفت أوّل الأمر بأنّها جدل، ووصفت في الآخر بأنّها حوار. وذلك هو الأمر الذي لا غرابة فيه. لقد جاءت المرأة تشكو زوجها، وجاءت منفعة من الطهار الذي أقسم به عليها، وشكروها بالجدل. لكن هذا الموقف قد تغير وهدأت نفسها قليلاً بالحديث مع النبيّ (ص)، واطمأنت إلى قوله، فتحول الجدل إلى حوار.

أمّا الجدل الخالص فنستطيع أن نضرب فيه المثل التالي:

يقول ﷻ تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِرْلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذْ جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (الأنعام/ 25).

وصور الحوار التي جاء بها القرآن الكريم تختلف عن صور الجدل. من حيث إنّ الجدل في العادة يكون بين طرفين، بينما الحوار قد يكون بين الإنسان ونفسه، أو بين الإنسان وعقله. والحوار حين يكون بين طرفين يكون الطرفان في مستويين مختلفين من حيث المعرفة والعلم، بالموضوع الذي يدور من حوله الحوار. أمّا الجدل فيكون في الغالب بين طرفين في مستوى واحد، ويعمل كلٌّ منهما على أن يهزم القوم الذي يجادل، وينتصر عليه.

ونأخذ الآن في استعراض بعض صور الحوار القرآني، ونبدأ من ذلك بحوار الإنسان مع نفسه. والصورة البارزة في القرآن الكريم عن هذا النوع من الحوار، هي تلك التي تصوّر حوار إبراهيم (ع) مع نفسه، والتي تكشف عنها الآيات التالية:

يقول ﷻ تعالى: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئنِ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ

وهذا المشهد الأخير، هو النذير لقوم محمد (ص). ويقول □ تعالى من نفس السورة: (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّي إِلهٌ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بِقِيَّةِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُوْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْرِئَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْتُمِنهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنزَلْنَاكُمْ عَلَيْهِ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٍ لَّوْطٍ مِّنكُمْ بِبِعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتِ ثَمُودُ) (هود/ 84-95).

فهنا أيضاً يدور الجدل حول العقيدة الدينية - ولكن تبرز في ثنايا هذا الجدل المفاصد المتعلقة بالمكيال والميزان وما إلى ذلك، كما تبرز مجاملتهم له من أجل رهطه، ولي لأنه رسول □. وكل هذا يذكرنا بموقف المعارضة في مكة من محمد (ص)، وكيف كان يأخذ عليهم التطفيف في المكيال والميزان، وكيف كانوا يحسبون حساب بني هاشم، وهذا كله إلى جانب التحدي الواضح، والنهاية هنا هي الإنذار لقوم محمد (ص)، الذين يكذبون، ولا يؤمنون بما جاء به من عند □. إن العاقبة قد تكون واحدة.

والمادة اللغوية التي جاءت منها كلمة الجدل هي: ج د ل تقول: جدل الرجل جدلاً - خاصم، والجدل هو المنازعة في الرأي، ويطلق على شدة الخصومة واللد فيهما، وتقول: جادل مجادلة وجدالاً - خاصم. (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا) (النحل/ 111). (قَالُوا يَا نُوْحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْذَرْتَ جِدَالِنَا) (هود/ 32).

والجدل قد يكون بالباطل ليصرف عن الحق، وقد يكون بالحق ليدحض الباطل. والمقام هو الذي يعين المراد، (وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) (غافر/ 5). ويقول الراغب في كتابه المفردات في غريب القرآن: الجدل: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل + أي أحكمت فتله، ومنه الجديل، وجدلت البناء: أحكمته، والمجدل: القصر المحكم البناء، والأجدل: الصقر المحكم البنية، ومنه الجدال - فكأن كل واحد من المتجادلين يفتل الآخر عن رأيه. وقيل الأصل في الجدال: الصراع ومحاولة كل واحد إسقاط صاحبه على الجدالة - وهي الأرض الصلبة.

وأصل المادة اللغوية التي جاءت منها كلمة الحوار: ح و ر تقول حار يحور حورا: رجع (إِنَّ زَنَّهُ طَنَّ - أَنْ لَنْ يَحُورَ) (الانشقاق/ 14) - أي يبعث ويرجع للحياة مرة ثانية. وحاوره محاوره: راجعه في الكلام، وتحاورا تحاورا: تراجعا وتجاوبا. (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) (الكهف/ 37). (وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمْ) (المجادلة/ 1) ويقول الراغب في كتابه المفردات: الحَوْرُ: التردد - إمّا بالذات وإمّا بالكفر. وحار الماء في الغدير: تردد فيه. وحار في أمره: تحير، ومنه المحور الذي تجري عليه البكرة لتردده، والمحاورة والحوار: المرادة في الكلام. ▶

المصدر: كتاب مفاهيم قرآنية